الحرف التقليدية تراث لامادي عريق: الدباغة بقبائل زيان وسط المغرب نموذجًا

د. جواد التباعي*

يقصد بالصنائع التقليدية مختلف أنشطة تحويل المواد الخام إلى منتوجات قابلة للاستعمال اليومي حسب الحاجيات. تكون مصنوعة يدويًّا، وبالاستعانة بأدوات يدوية تقليدية، مع إمكانية الاستعانة بالمصممين من أجل أن تواكب هذه المنتوجات متطلبات السوق دون أن يفقد المنتوج خصائص العرقية والخلفية التاريخية[36]. يمكن الفصل فيها بين النفعي والجمالي[37]، وتستخدم تقنيات ضاربة في القدم استطاعت بها أن تحافظ على استمراريتها وتصبح جزءًا أساسيًّا من التراث اللامادي المرتبط بالمهن الحرفية لا الخدماتية. برع فيها المغاربة على الأقل منذ العهد المريني خاصة صناعة الفخار، ودبغ الجلود وخرازتها، وصناعة السروج، واللجم، والسيوف المذهبة[38]، وحياكة الصوف[39]، وإلى حدود اليوم تحظى الصنائع التقليدية باهتمام واسع ومتزايد، سواء على مستوى البرامج الرسمية للدولة، أم المبادرات المحلية باعتبارها وعاءً للهوية والثقافة المحلية[40].

---

* المدرسة العليا للأساتذة مكناس ـ المغرب

[36]– UNIDO.Creative Industries and Micro & Small Scale Enterprise Développent A Contribution to Poverty Alleviation , Vienna, 2005, p29

[37]. نعيمي مصطفى، **منطقة أزرو على عهد الحماية 1911. 1956 التدخل، البنيات، والمقاومة**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2013، ص 228

[38]. ابن خلدون عبد الرحمان، **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحاذه، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ج7، ص708

[39]. يعد الصوف أقدم مادة نسيجية في البلاد، حيث كان المغرب أول منتج ومصدر له في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط (العلوي عبد العزيز، "**صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الإنتاج والمبادلات)**"، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد خاص2، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء،1985، ص49

[40]. البحري زهير، التبتي محمد، "**الصناعة التقليدية مرتكز أساسي للتنمية المحلية بجماعة إغزران**"، ندوة التنمية القروية بالمناطق الجبلية الحاجيات والمنتظرات، المنتدى الثاني للتنمية والثقافة لإغزران 2012، منشورات الجماعة القروية لإغزاران رقم 2، مطابع Imagerie Pub Neon، فاس، 2012، ص307.

تساهم في إنعاش الدورة الاقتصادية، حيث تشغل أزيد من2,5 مليون صانع تقليدي في ورشات فردية، ومقاولات حرفية يتنوع منتوجها بين فني، وإنتاجي، وخدماتي[41]. وتدريجيًّا تزايد ارتباط الصناعة التقليدية بالثقافة والسياحة والتراث، ورغبة السياح في اقتناء منتوجاتها كتذكارات من المناطق التي زاروها، بعد الاطلاع على طرق إنتاجها مباشَرةً في الورشات، أو كمنتوجات يُسوقُها الصانع بنفسه[42]. لكن تَراجُع معظمها فرض علينا التعريف بها وتثمينها انطلاقًا من التساؤل عن **أهم حرف وخصائص الصناعة التقليدية للجلد ببلاد زيان (90% من إقليم خنيفرة وسط شمال المغرب)؟ ومميزاتها؟ وسبل تثمينها لتشكل ركيزة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية؟**

1. نبذة تاريخية عن الدباغة الزيانية

اهتدى الإنسان منذ عصور مبكرة لأهمية الجلد، فاستخدمه لستر عورته، ولوقاية جسده من تغيرات المناخ وعوادي الزمن. وتوصل تدريجيًّا لتقنيات ووسائل لدبغ هذا الجلد قصد تطويعه والتخلص مما يمكن أن يكون قد بقي فيه من رواسب وروائح. وقد تعددت هذه التقنيات والوسائل بتعدد أنواع الجلد، وطرق استخدامه (ملابس، أحذية، أدوات عمل...) حتى أصبحت هذه الصناعة رائجة في مختلف أنحاء العالم القديم[43].

عُدت الدباغة ونسج الصوف من ثوابت البنية الحرفية والتجارية للمغرب خلال العصر الوسيط[44]، واستمرت إلى أواخر القرن الماضي. كان خلالها الجلد يصدر خامًا أو مدبوغًا رغم احتكار جهاز المخزن الحاكم تصديره في بعض الفترات. وإذا كان من الصعب تحديد زمن بداية الدباغة بمجال الدراسة، فإنه لا يمكن تصور مدينة وسيطية مزدهرة كفازاز، دون أن يكون لدباغة الجلد نصيب

---

41. جامعة غرف الصناعة التقليدية، **مجلة جامعة غرف الصناعة التقليدية**، إصدارات جامعة غرف الصناعة التقليدية بالمغرب، ع11، مطبعة كادرا، الرباط، 2010، ص11

42. السرغيني صباح، "**الثقافة والتراث في خدمة السياحة والتنمية بمدينة فاس**"، ندوة الثقافة ورهانات التنمية، منشورات الدورة 21 للملتقى الثقافي لمدينة صفرو، الشركة العامة للتجهيز والنشر، ط1، 2011، ص90

43. الصالحي علي بن خميس، **دور المؤسسات المحلية في تنمية الصناعة التقليدية نموذج مجمع الصناعة التقليدية بمراكش**، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، 2023، ص 45.

44. نشاط مصطفى، **جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/ 1212م إلى 759هـ / 1358م مساهمة في دراسة العلاقات المغربية الإيطالية في أواخر العصر الوسيط**، مطابع الرباط نت، الرباط، 2014، ص140؛ زنيبر محمد، "**الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي**"، ندوة أعمال ابن خلدون، الرباط، 1979. ك. آ. ع. إ، الرباط، 1979، ص ص 277. 323

في هذا الازدهار. وينطبق الأمر نفسه على الزاوية الدلائية، وبقية زوايا ومساجد وأضرحة المنطقة التي كانت "الهيدورة"[45] أهم آتات مجالسها.

كانت دار الدباغ من أهم مكونات مدينة خنيفرة خلال مرحلة التأسيس، وعند تجديدها في عهد موحى اوحمو الزياني. وتشير الوثائق إلى أن القباب احتلت الصدارة في صناعة الجلد، خاصة البلاغي والمحافظِ الجلدية (إقرابنْ). وتميزت في صناعة المناشف الجلدية للأوروبيين[46]. ولعل تأكيد *Le Tourneau .R* على الغياب الدائم لأمين الخرازة المسَاخرية عن فاس بسبب نشاطه التجاري بخنيفرة[47]، لدليل واضح على مكانتها في دباغة وصناعة الجلد في زمن كانت فيه فاس...والكل في فاس".

عند وصول المستعمر إلى خنيفرة كان الدباغون والإساكفيُّون يجتمعون في دشرة آيت يحي حول منزل زعيمهم المجاور لفندق "سوق الحنة" الذي تباع فيه أيضًا قشور الدباغ والجلود[48]. وتضررت المنطقة كسائر مناطق البلاد من قرار 1913م الذي منع أخذ لحاء الأشجار الصالحة للدبغ، إلا بعد ترخيص من المياه والغابات مقابل رسم مالي[49] فتراجع الإنتاج. وخلال ثلاثينيات القرن الماضي صدّر حرفيو زيان معظم إنتاجهم إلى فاس، ومراكش، والرباط، وصفرو التي كانت تعج باليهود المتخصصين في تجارة الجلد، وتسبب إدخال اليابان أحذية رخيصة الثمن[50] إلى المغرب سنة 1933م في إغلاق العديد من المحلات بسبب "البطانة الرومية" إلى حدود 1936م[51].

---

45 . **الهيدورة:** جلود غنم مدبوغة بدون إزالة صوفها، تتخذ سجادةً تقليدية ناعمة في المساجد والبيوت.

46. كنون سعيد، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب الدكتور محمد بوكبوط، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، 1929، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع 18، يوليوز 2014، ص25.

47 –Guyot.P, Le Tourneau R» ,**Les Cordonniers De Fès** «In Hespéris, 1936 ,Fasc1, P48

48. بيرجي فرانسوا، **موحا اوحمو الزياني (1877 1921)**، ترجمة محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 1999.ص 26

49. المفوضية الفرنسية بالرباط، **جريدة السعادة**، س 11، ع 735، 9 ماي 1914، الفصل الرابع من القرار الوزاري بتاريخ 27 دجنبر 1913.

50. البكراوي محمد، "**وضعية حرفة الدباغة بمدينة مكناس على عهد الحماية 1934. 1954**"، ندوة التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب، ك.آ.ع.إ، الرباط، 1995، مجلة أمل، ع 18، 1999؛ نعيمي مصطفى، م. س، ص213.

51. نعيمي مصطفى، م. س، ص 214

استمر تراجع الدباغة المحلية خلال أربعينيات القرن الماضي، بفعل حظر مصلحة المياه والغابات استغلال لحاء شجر البلوط الذي كان أهم مواد الدباغة، والنقص الكبير في زيت المائدة المستخدم في ترطيب الجلد[52]. واقتنت السلطات الفرنسية مخزون الجلد المغربي لسد حاجياتها الحربية، فارتفع ثمنه وتراجع عدد العاملين به[53]، ونشطت بالمقابل الخرازة كثيرًا بين 1944 و1948م خاصة صناعة الأحذية التقليدية (البلغة بالنسبة للرجال[54] والشربيل بالنسبة للنساء)، والمحافظ، والقِراب، والمنافيخ، وزاد ازدهارها بعد إغلاق المعامل الأوروبية[55].

2. عوامل ازدهار الدباغة الزيانية:

زيان اتحادية أمازيغية من قبائل الأطلس المتوسط قاعدتها مدينة خنيفرة، صنفت من أكبر اتحاديات المغرب خلال نهاية القرن 19 وبداية القرن 20م، وغلب اسمها على القبائل المجاورة لها حتى اعتبرت المنارة الحقيقية لوسط المغرب[56] وخنيفرة جوهرته. استفادت فيها الدباغة من وفرة جلد الماعز بالنظر لموقع المنطقة الجبلي الرعوي، ومن المياه الضرورية لغسل الجلود بفعل موقع خنيفرة على ضفتي "مُ رْبِيعْ". فأصبح الزيانيون مهرة في دبغ الجلد وخرازته. ورغم أن القطاع وصف بالدونية، فإن خنيفرة تضم مدبغتين شيدتا على ضفتي مُ رْبِيعْ وسط مينة خنيفرة.

52. مقابلة مع المعلم عبد المجيد الدباغ، أمين دار الدباغ بالمدبغة التقليدية بخنيفرة 25/ 05/ 2017.

53. الخمليشي عبد العزيز، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية**، منشورات ك. آ. ع. إ بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات 66، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2012، ص 349

54 . جذير بالذكر أن لكل نوع من أنواع الأحذية فروع وأسماء متعددة تختلف حسب استعمالاتها فالبلغة التي يستخدمها الفلاح تسمى " الحارثية"، والتي يستخدمها طلاب المساجد تسمى" الطالبي"، وتتعدد تسميات بلغة الأعياد والمناسبات بين " المدفونة" و" المخروزة"، دون الحديث عن " الريحية" و"السكومة" التي لا يسع هذا المقال للحديث عنها.

55. الشرقاوي محمد، **ورقات من تاريخ الزاوية الشرقاوية ومدينتها أبي الجعد خلال الفترة ما بين 1894.** 1956، مطبعة صناعة الكتاب، ط1، 2009.، ص122.

[56]. الرائد كورني، **رائحة البارود في طريق احتلال الجنوب المغربي مع طابور مانجان مشاهد من مقاومة الرحامنة وتادلا وزيان والقصيبة**، ترجمة محمد ناجي بنعمر، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع 23، ماي 2017، ص143.

***المدبغة التقليدية العتيقة:** تقع على الضفة اليمنى لنهر مُ رْبِيعْ، بحي "الدباغة"، عند المخرج الجنوبي الشرقي للمدينة العتيقة تفاديًا للروائح، وتطبيقًا لقاعدة دفع الضرر. تتكون من مدبغة رئيسية ضمت حتى وقت قريب ثلاثة وثمانين مْعلمًا، وفرع ثانوي بجواره، لا زال حرفيوها القلائل يمارسون الحرفة كما تعلموها من أسلافهم المؤسسين.

***المدبغة التقليدية الجديدة:** شيدت من طرف وزارة الصناعة التقليدية في سبعينيات القرن الماضي، بموجب مرسوم وزاري مؤرخ سنة 1974[57]. وزودت بآليات حديثة، إلا أن جهل الدباغين بطرق استخدامها جعلهم يفضلون البقاء في المدبغة القديمة، فنقلت الأدوات إلى مناطق أخرى وبقيت المدبغة مهملة. وأُعِيد تأهيل المدبغة سنة 2008م في إطار تثمين القطاع، وإعادة توطين الصناعات الملوثة، وعُهِدَ بتسييرها سنة 2011م لجمعية محلية، اقترحت الحفاظ على أصالة الدباغة مع إدخال آلات جديدة غير مؤثرة كثيرًا في مسار الدباغة كـ"الفُونة"، والتزم الحرفيون بدفتر تحملات يحمي البيئة. وفي المدبغتين معًا يمر الجلد بمجموعة من المراحل:

3. مراحل دباغة الجلد بمدبغتي زيان:

قبل أن يصبح منتوجًا جاهزًا، يمر الجلد في المدبغتين معًا بمجموعة من المراحل نجملها في الجدول التالي:

جدول 1: مراحل دباغة الجلد بمدبغتي خنيفرة

المراحل	العمليات	ملاحظات
شراء الجلد	يشترى جلد الأبقار والأغنام والماعز بنوعيه الجاف والطري من "رَحْبَة الجلد" بأسواق المناطق المجاورة الموزعة على أيام الأسبوع.	
الترطيب	. توضع الجلود الجافة في الماء بين 3 و4 أيام خلال فصل الشتاء ولا تتجاوز يومًا واحدًا عند اشتداد حرارة الصيف[58]، ثم يغسل بعناية. . يضاف الملح للجلود الطرية لإزالة بقايا الدم العالقة بها وهي أكثر جودة وثمنًا من الجلود الجافة.	. في المدبغة الجديدة يجمع الماء في أحواض صديقة للبيئة، ويعرض للتبخر قبل أن يصرف في محطة معالجة المياه العادمة، عوضَ رميه في النهر مباشرة.
إزالة الصوف	. تطلى الجلود بالجير والرماد من الداخل وتبقى لمدة بين 12 و24 ساعة مما يساعد على إزالة الصوف بسهولة، وفي حال ارتفاع الحرارة يمكن أن تُباشَر العملية بعد ساعتين أو ثلاث من انتهاء الطلاء.	.كان صوف الدباغة يباع بالمدبغة حتى قبل أن يجف لأزيد من 2000 من صانعات الحصائر والزرابي الأقل جودة، من المدينة

57. المملكة المغربية، الجريدة الرسمية للملكة، ع3211، 15ماي1974، ص1265

58. لأن الماء يصبح ساخنًا، ويسهل عملية الترطيب في وقت وجيز وقد يتعفن بسرعة.

		ومن المناطق المجاورة، أما اليوم فترمى لأن الإقبال عليها شبه منعدم.
المجاير	. توضع الجلود في حفر[59] دائرية من الجير البارد[60] بين أسبوع و15 يوم حسب الظروف المناخية. تنقل بعدها إلى مجاير مستطيلة للتشبع بالجير الساخن لمدة 3 أيام، مما يجعل هذا الجلد يدوم مدة أطول دون أن يتأثر.	. عندما يشبع الجلد بالجير يعد ظهور حبيبات بجلد الماعز دلالة على جودته، فيصبح مطلوبًا أكثر من طرف الإسكافيين.
غسل الجلد	. تغسل خلالها الجلود جيدًا في المَركَلْ[61]، أو بالفونة[62]، لأن بقاء الجير في الجلد يعيق الدباغة.	يمنع قانون استغلال المدبغتين استخدام المواد الكيماوية كالكروم.
الترقيق	. يوضع خلالها الجلد في حفر دائرية مليئة بروث الحمام[63]، ليومين إلى ثلاثة أيام[64]. يقل فيها سمك الجلود حتى تصبح شبيهة بالأمعاء "مَصْرَانْ"[65]، وتفقد بقايا جير محتملة. بعد ذلك يغسل مرة أخرى في البرميل أو المركل.	حفر الترقيق دائرية مغلقة في المدبغة القديمة، ودائرية مزودة بنظام صرف في المدبغة الجديدة. . لا يخضع جلد البقر لهذه العملية.
التصفية	. توضع خلالها الجلود في (قَصْرِيَةْ) أخرى مليئة بالماء، ونخالة الحبوب لمدة ثلاثة أيام أخرى، لتنقيتها من كل البقايا. ثم تغسل مرة أخرى لتصبح جاهزة للدبغ.	يشترط أن يبقى في النخالة بعض الدقيق، أو يضاف قليل منه.
الدبغ	توضع الجلود في حفر مليئة بالميموزا[66] بين أسبوع وأسبوعين إذا كان الجو باردًا. بعد ذلك تُعَرَّض لأشعة الشمس على السطح أو في الهواء الطلق حتى تجف. تُرَش بعدها بالماء بين الفينة والأخرى بعدما تجف، وتبقى ليلة كاملة قبل أن تمدد حتى تصبح رطبة وتمر إلى مرحلة التليين والكشط.	

59. تتميز المدبغة القديمة بالتنوع بين المجاير المستطيلة والقصريات الدائرية، بينما كل الحفر دائرية في المدبغة الجديدة.

60. **الجير البارد:** جير مستعمل عدة مرات، عكس الجير الساخن الذي لم يسبق استعماله. دوره جعل الجلد رخوا، عكس الجير الساخن الذي يجعل الجلد يتقلص ويزداد سمكه خاصة جلد الماعز.

61. **المركل:** تركل فيه الجلود في صهريج لمدة 3 إلى 4 ساعات لكل صهريج 40 قطعة.

62. **بالفونة،:** جهاز يغسل فيه الجلد 45 دقيقة مقسمة على ثلاث مرات، لأنه يشتغل أوتوماتيكيًّا لربع ساعة فقط.

63. **روث الحمام (الديشي):** يشتريه الدباغون من مربي الحمام بالبادية أو بالمدن. يوضع في الحفر قبل يوم واحد من العمل به بيوم ليتحلل. يعد صديقًا للبيئة حيث بالإمكان إفراغه في النهر دون أن يؤثر على جودة المياه.

64. لا تتجاوز المدة 3 أيام صيفا، لأن الجلود يمكن أن تتلف نتيجة التفاعل بين مواد الترقيق وحرارة الأرض. وخلال الفصل البارد يمكن أن يبقى لمدة 10 أيام، لأن دور هذه المرحلة هي جعل الجلد رقيقا للتحكم في طريقة العمل به فيما بعد.

65. يقصد بها الحرفيون أن تشبه أمعاء المواشي من حيث السمك والدقة والبياض.

66. **الميموزا:** يسميه الحرفيون ميموزا أو مرموزا، وهو دقيق لحاء شجرة الأوكاليبتوس المحلي. كان قدماء الدباغين يضيفون له تكاوت، لكنه تراجع تدريجيًّا، حتى أصبح استعماله يقتصر فقط على الجلد الزيواني (الأصفر)، أما

التليين والكشط	**. جلود الأغنام:** يتم تليينها عن طريق نفث الزيت، وبعد أن تجف ترش بثوب مبلل أو أداة رش خاصة. تبدأ بعدها عملية الكشط بصدرية غير حادة أولا ثم بأخرى حادة. وتستمر العملية بـ"أمساح"[67]، يتم التليين بقطعة زليج ملساء، ويساعد الزيت في تلميع الجلد (الزْيَاقْ). **(الصورة1)** **. جلود الماعز:** تفتح الجلود غير المفتوحة وتخضع لنفس العمليات، مع إضافة عملية أخرى تعرف بـ "تامرانت" [68] **(الصورة1)**	. يفضل الحرفيون نفث الزيت عوض رشه برشاشة، لكون هذه الأخيرة تصبه بقعا على الجلد في حين يوزع النفث الزيت بالطريقة المطلوبة. تعوض هذه العملية خلال رمضان بالدهن بقطعة صوف (تَصُوافتْ) . يستعمل جلد الأغنام كتبطين داخلي لضعف تحمله، بينما يستخدم جلد الماعز (الدبغي) الجيد في الواجهة لصلابته، أما الرديء منه فيستعمَل فراشا للأحذية. . يثبت الملح والشب الشعر على جلد البقر، ويحافظان على لونه الأصلي.

الصورة 1: نماذج من أدوات الدباغة التقليدية بمدابغ زيان

يبدأ غالبية الدباغين عملهم ويختمونه بالصلاة على النبي وشكر الله على نعمه، للتأكيد على روحية هذه الصنعة. وكانوا يقومون بالنزاهة يوم الجمعة بنواحي لهري أو على ضفاف مُ رْبِيعْ بحضور

الدباغون الجدد فيؤكدون أنه يصنع اليوم من دقيق شجر مستورد شبيه بالأوكالبيتوس يزرع في المغرب تطحنه شركات خاصة بفاس ويتجاوز ثمنه 450 درهم ل 40 كلغ.

67. **أمساح:** آلة حديدية حادة تستعمل في إزالة كل الشوائب التي قد تبقى عالقة بالجلد **(الصورة1)**

[68]. **تامرانت:** قطعة زليجية أو طينية محززة، تمرر على الجلود للتخلص من بعض الشوائب، وإظهار بعض الخشونة على الجلد ليصبح قابلًا للاستعمال. وهي عملية متعبة حيث لا يتجاوز عدد الجلود الممرنة 20 إلى 24 وحدة في اليوم **(الصورة1).**

الأبناء دون النساء. ويحرصون على تجسيد طقوس فرجوية خلال مناسباتهم الخاصة، وبعض المناسبات الوطنية كعيد العرش. يتقمص فيها الدباغون دور الجوق في تنشيط الحفلة، لأنهم يجيدون العزف على ما صنعت أيديهم من الآلات الطبلية كالتعريجة، والدف، والوتر....

ثانيًا: نماذج من استخدامات الجلد المدبوغ ومظاهر تثمينه ببلاد زيان

اسْتُخْدِمَ جلد الماعز (والأغنام أحيانًا) قرابًا لسقاية الماء، ودلاء لرفع المياه من الآبار، وفي صناعة رق كتابة المراسلات، والأحزمة الجلدية، والسروج المطرزة، وحقائب بألوان حمراء وصفراء فاقعة، ونعال نسائية بألوان زاهية[69]. ووظف أيضًا في خرازة الأحذية، وصناعة محافظ النقود الكبيرة والصغيرة[70]، بالإضافة إلى الأدوات المنزلية كالغرابيل والمناخل، وهيدورة للفراش[71] والصلاة في البيوت والمساجد.

كانت تُسْتَعْمَل جلود الثيران والأسود والفهود زرابيَ وأفرشة في البيوتات الكبرى بزيان للدلالة على الغنى والقوة، كبيوت إمحزان الذين عرفوا بحنكتهم القنص[72]. وتصنع من جلد البقر المدبوغ (المسُوكِيةْ) النعال الخشنة التي استخدمها الرعاة والرقاصُون في قرون الجبال وامتدادات أزاغار. ويباع فائض الجلد بمراكش وفاس والرباط، لتصنع منه الحقائب والطرابيش الجلدية الكبيرة والأحزمة، وباستمرار الطلب على المنتوجات الجلدية بزيان تبقى صناعة الجلد مستمرة رغم تراجع الوثيرة. وأهم هذه الاستخدامات:

1. الشكوة (تاكشولت)

وعاء جلدي يتحول فيه عنق الجلد إلى فم للشكوة التي تعلق من الأرجل، تتطلب توفير دفء نسبي، وتحرَّكُ إلى الأمام والخلف لتحويل رائب الحليب إلى لبن، ونحو اليسار واليمين لفصل السمن عن اللبن بجودة عالية مقارنة مع لبن الأواني البلاستيكية الجديدة. يدبغ جلدها بالطرق المشار إليها أعلاه، ويتراوح ثمن الجلد الواحد منها ما بين 15 و70 درهمًا، لأنه ينتقى من بين عدد كبير من

---

69 –Pilant Lieutenant, « Notes Contributives À L'étude De La Confédéra –tion Zayan «**Les Archives Berbères** ,Publication Du Comité d'Études Berbères De Rabat, 1919 ,P98

70. تعرف الصغيرة **بالبزاطم**، وهي محافظ صغيرة لحفظ الأموال الشخصية في الظروف العادية أما الكبيرة فتعرف بـ"**الشكاير**" وهي محافظ كبيرة لحفظ الأموال الكثيرة خاصة خلال عمليات التجارة والتنقل بين الأسواق.

71. زيادي أحمد، **الأحاجي الشعبية مجالاتها وبنياتها ووظائفها ومقارناتها وخصائصها**، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2007. ص. 93

72 . عاينا خلال مرحلة متأخرة مولاي حماد بن حسن ابن موحى اوحمو الزياني الذي كان راميا لا يخطئ الطائر فوق الدابة، ولازال الزيانيون يرمزون بـ" الساجد على جلد النمر أو الأسد " للرماة الأقوياء والأغنياء.

الجلود يكون خُمسها فقط دون ثقوب وصالح لصناعة الشكوة. كانت المرأة تعقدها بعود من الأسفل وتملأها بالماء للتأكد من صلاحيتها في السوق قبل شرائها. توضع بعد كل استعمال في ماء ممزوج بدقيق من العرعار، ولحاء شجر البلوط المنتشر بكثرة في غابات المنطقة كي لا تفقد جودتها فتؤثر على جودة الحليب واللبن[73]. تساهم العملية أيضًا في رفع سمك جلدها الذي يتحول بعد انتهاء صلاحيته إلى مادة لعلاج أنواع مختلفة من الحمى بعد طبخه مع مجموعة من الأعشاب الطبية، وشرب مرقه[74]. تنعت في الأحاجي الشعبية بكونها "**فُمِ بلاَ سْنَان ويدِّينْ بلاَ صُبعَان، وكَرشْ بلاَ مصْران**"[75].

2. صناعة الآلات الموسيقية التقليدية:

رغم ظهور الآلات الموسيقية البلاستيكية والكهربائية، لازالت صناعة الآلات الموسيقية التقليدية مزدهرة ببلاد زيان وأهمها:

***الدفوف التقليدية (أَلُوتن):** تشير المعطيات إلى أن سكان المنطقة في الحفلات قديمًا كانوا يمارسون الغناء على إيقاع وسادة مصنوعة من الجلد تسمى عند عرب المنطقة "المَزود" وعند أمازيغهم "أخريض". وتدريجيًّا اكتشفوا طريقة صنع الدف أو تالونت (*talount*) بالضرورة من جلد الماعز بعد دبغه بطريقة مختلفة قليلًا عن الجلد العادي. فبعد ترطيبه وغسله يطلى بالجير والرماد فقط، ثم يغسل ويزال شعره، ويوضع في روث الحمام لترقيقه وتجفيفه، يجفف بعدها تحت أشعة الشمس حتى يصير في أقصى تمدده، ثم يخاط على إحدى واجهتي "إغص"[76] خشبي جاهز بخيط أَغرُوسْ[77]. بعد كل استعمال هناك من الفنانين من يعلق الآلة في المطبخ التقليدي حتى يصير

---

73. قلاق حسن، الترابية بالأطلس المتوسط الشمالي الشرقي . من أجل قطب لاقتصاد التراث، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، ك. آ. ع. إ، سايس، فاس. 2013. 2014. ص 149

74. شكاك صالح، **مادة "الشكوى"**، ضمن موسوعة معلمة المغرب، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر بإشراف محمد حجي، مطابع سلا،1984. 2004، ج16، ص5406.

75. زيادي أحمد، م. س، ص 92

[76]. **إغص:** كلمة أمازيغية يرادفها في اللغة العربية "العظم" قطعة خشب يتراوح عرضها بين 10 و15 سم، وطولها 100 و120 سم. يشترط في الخشب أن يكون جافًا وخاليًا من الرطوبة؛ إذ كلما زاد جفافه زادت جودة النغمة الموسيقية للآلة. يتم تسخينها وتدويرها بشكل تدريجي حتى تصبح تامة الاستدارة، ويوضع في أحد أطرافها ثقب يضع فيهه الفنان إبهامه للتحكم في الآلة خلال العزف.

77. **أغروس:** خيط رقيق من جلد الحاشية يدخل في المخيط وتخاط به الدفوف والآلات الوترية كالطبل والوثار، والرباب لأن خياطتها بغيره لا تصمد طويلًا، ويمكن تجفيفه والاحتفاظ به في الظل لاستعماله عند الضرورة.

لونه أسود، وتزداد نغمته جودة وأصالة كلما تقادم جلده[78]. عندما يكون الدف الجلدي مرافقًا للكمان يجب أن يكون ممددًا إلى الحد الأقصى مما يتطلب تسخينه أكثر وباستمرار، أما في حالة مرافقته لآلة الوتر فيكون مرنًا أكثر. استمر هذا الوضع حتى نهاية ثمانينات القرن الماضي حيث ظهر الدف البلاستيكي الذي أصبح يحل تدريجيًّا محل الدف الجلدي التقليدي الذي مازال ينافس حتى اليوم وإن بوثيرة ضعيفة جدًّا.

***صناعة الوتر (الهجهُوج):** يكون الهيكل المقعر للوتر غالبًا من شجر الجوز، وتصنع قبضته وبطنه من الصفصاف أو الأرز. يُحضر بعدها جلد عنزة وتُدخل إحدى أرجله غير مفتوحة في قبضة الوتر، ويغطى بطنه ببقية الجلد ويثبت بمشابك حديدية، أو يخاط من جهة الظهر[79]. ظهرت هذه الآلة وفق روايات شفوية بالأطلس المتوسط منذ القرن 17م على يد شخص يدعى "أوبرها" وتكونت من وترين فقط، أضيف لهما وتر ثالث في فترة غير معروفة، لكن الأكيد أن محمد رويشة (1950 . 2012) أول فنان أضاف الوتر الرابع لهذه الآلة.

3. القراب المائية والجلدية:

تُصنع القراب المائية بدورها من جلد الماعز المدبوغ دون غيره، تطلى بالقطران من الداخل فقط، وتحافظ شعيراتها الخارجية على برودة الماء خلال الفصل الحار. كانت تعلق على حامل سقف (حَمَّار) الخيمة، أو إحدى زواياها، ومن أراد الشرب عليه رفع الجلد قليلًا كما يفعل السقاء.

أما القراب الجلدية فأشهرها "إبيَاعنِ أوُسليخ"، وهي أكياس جلدية كان يوضع فيها لب الدقيق "الدْقاقَة" قبل ظهور البلاستيك. من نماذجها أيضًا الحقائب الجلدية الكبيرة المستخدمة في حفظ الأشياء الثمينة كالمسكوكات والوثائق الإدارية والكتب والحلي...

---

[78] . كتاب جماعي، **في ذاكرة الموسيقى الأمازيغية حوارات**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري سلسلة دراسات وأبحاث رقم 84، منشورات مطبعة عكاظ، الرباط 2021، صص 124. 126 وهو تصريح للفنان مولود حموشي في حوار مع دريس أزضوض بمدينة خنيفرة في أبريل 2016.

79. مقابلة سابقة مع المعلم **عبد المجيد**، دار الدباغ.

4. المزاْود والكراسي الجلدية:

المَزَاوِد جلود غنم مدبوغة كانت توضع فيها المؤونة، وتستعمل أحيانًا مخداتٍ للنوم بعد دكها بالليف[80]، ولازالت تُسْتَخْدم اليوم كراسيَ. يستعمل في دباغتها الملح والجير ونُخَّال القمح، ولحاء شجر البلوط، وقشور الرمان، والتين الجاف، وفضلات الحمام، و"تاكّاوت" المجلوبة من درعة.

5. تلوين الجلد والتحنيط التقليدي:

مع انقراض بعض الحيوانات كالفهود والحمير الوحشية.... ومع تراجع المكانة الاقتصادية لهذه الصناعة التقليدية يعمل الزيانيون حاليًا على إعادة الاعتبار لصناعة "الهيدورة"، من جلد الأبقار عن طريق الرسم على الشعر وزخرفة الجلود بصباغ خاص، لتصبح نسخة جيدة من جلد أي حيوان بناء على طلبات من مختلف المدن. تزيد قيمتها المعنوية للجلد، وتنتقل قيمته المادية من 500 درهم إلى 1000 و1500 درهم حسب الأشكال ومدة العمل.

ويمارسون أيضًا التحنيط التقليدي الذي يتم بإفراغ جوف أو رأس الحيوان أو الطائر المراد تحنيطه (حجل، ثعلب، ذئب، رأس خنزير...) ثم يطلى جلده من الداخل بخليط من الشب الأبيض المفتت، والملح الحجري بكميات متساوية. ويترك لمدة أربعة أو خمسة أيام يملأ بعدها بالقطن، ويكثر هذا النوع من الجلود في بيوت المولعين بالقنص.

تعد جمعية إبداع لقرية الصناع التقليديين[81]، من الجمعيات الرائدة في تثمين الصناعة التقليدية بزيان. عرفت النور ضمن مشروع وطني لتجميع حرف الصناعة التقليدية في فضاء خاص ومنظم. تضم القرية حرفًا متعددة أبرزها صناعة السروج، الحدادة الفنية، فن الخشب، والمصنوعات الجلدية، النحت على الحجر، المصنوعات النباتية والنحاسيات... وأهم أهدافها: إنعاش الحرف النشيطة، وحماية المهددة منها بخطر الاندثار بما يعنيه من فقدان الذاكرة الجماعية لقاموس المعارف الخاصة بالمنتوجات والمواد الأولية النادرة[82]. كما تهدف لتطوير تقنيات العمل للرفع من الإنتاجية، وتحسين

---

80. **الليف:** ألياف تصنع من الأنسجة التي تكسو النخل القزمي (الدوم)، كان الفقراء يملؤون بها المخدات عوض ريش النعام عند الأغنياء.

81. تأسست جمعية إبداع لقرية الصناع التقليديين في إطار رؤية 2015 للنهوض بقطاع الصناعة التقليدية خلال موسم 2012. 2013. تقع بمحاذاة المندوبية الإقليمية للصناعة التقليدية قرب ثانوية طارق وتضم القرية حاليًا 20 محلًا.

82. جامعة غرف الصناعة التقليدية، مجلة جامعة غرف الصناعة التقليدية، إصدارات جامعة غرف الصناعة التقليدية بالمغرب، ع11، مطبعة كادرا، الرباط، 2010. ص 54

وضعية وظروف عمل الحرفيين وجودة المنتوج التقليدي[83] وبالتالي المساهمة في النهوض بتراث وثقافة واقتصاد المنطقة.

بالموازاة مع قرية الصناع التقليديين، أحدثت مراكز "دار الصانع" و"دار الصانعة" في عدة مراكز قروية مجاورة. وشيد مركز للتأطير والتكوين والتدريب في مجال الصناعة التقليدية وتثمين المهارات والحرف اليدوية بخنيفرة، يساهم فيه صناع القرية بخبراتهم، للإبقاء على الموروث الحضاري والمهارات الأصيلة، وضمان نقلها من جيل لآخر، لكن تحقيق الأهداف يستوجب:

- ✓ إحياء نظام "الجْمَاعَة"، ودعم الجمعيات المهنية وتشجيع الحرفيين على الانخراط فيها، لخلق نسيج إنتاجي ينافس المنتوج الأجنبي ويخفف أضرار موسمية المعارض.
- ✓ مراقبة جودة المنتجات المحلية، وبرمجة نقط لبيع المنتجات التقليدية ضمن المدارات والمسارات السياحية[84]، وتشجيع الصناع التقليديين على الخلق والإبداع وتقريب المنتجات من زبناء وعشاق الفن والإبداع.
- ✓ توثيق الحرف المهددة بالاندثار وضمان إشعاع بالمنتوج المحلي، من خلال وثائق مكتوبة ورقمية وأشرطة وثائقية بتعاون مع متخصصين في التنمية الاقتصادية والسياحية.

خاتمة:

قصارى القول لعل أهم ما ميز الصنائع التقليدية الزيانية خاصة صناعة الجلد، هو كون معظم الصناع من الوافدين على المنطقة واقتصار حرفيي الاتحادية على منتجات الحياة اليومية البسيطة، وضعف الحس الفني، وعدم والاستقرار نتيجة الانتجاع. شكلت مواد صناعتها وزخارفها بالمقابل إبداعًا تشكيليًّا وعلامات محكمة التنسيق ومتناغمة الرموز[85] باعتماد معيار "قياس اليد". وكانت الصنعة أولى من التجارة في المصاهرات، لكن تراجع معظم الحرف ساهم في انخراط الحرفيين في الحركة الوطنية[86] وعجل بالاستقلال. وبقيت صناعات النسيج والجلد والطين مورد عيش أساسي

83. رايص نور الدين، **ألفاظ الصناعة التقليدية الفاسية دراسة معجمية ميدانية: الصناعات النسائية نموذجًا**، ج2، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة الأفق، فاس، 2007. ص321

84. عبيدي سعيد، **قصور المعاضيد دراسة تاريخية وعمرانية**، بحث لنيل شهادة الماستر، ك.آ.ع.إ، سايس، فاس، 2011. 2012، ص 171.

85. أعمار عبد العزيز، " **وشم المرأة في شعر الملحون: دلالة الرمز في خطاب الجسد وخيال الذاكرة**"، مجلة المناهل، إصدارات وزارة الشؤون الثقافية، ع 45، س 19، يوليوز 1994، ص ص 144. 152

86. بوسلام محمد، **اللباس التقليدي في المغرب (الجذور والإنتاج والأصناف والتطور)**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2014.، ص 244

لقسم مهم من الزيانيين، ومرآة تعكس حضارة وأصالة المنطقة، ورافعة أساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية المحلية تستوجب المزيد من العناية والاهتمام، خاصة مع حرص الصناع على استمراريتها ورغبة الأجيال الحالية في الحفاظ على حرف أسلافهم. تتجسد هذه الاستمرارية في تمسك الحرفيين بمقولة "**حَرفة بُوك لا يغلبُوكْ**" المتداولة في الأوساط الحرفية، والمرتبطة غالبًا بالابن البكر لكل صانع. يتطلب كل هذا حماية هذه الصنائع التقليدية، باحتضان الصناع وإعادة تأهيلهم[87]، وإيلاء عناية خاصة بالصناعات التي هي في طور الاندثار.

87. عبيدي سعيد، **قصور المعاضيد...**، م. س، ص 170

المصادر والمراجع المعتمدة

1. المصادر:

- ابن خلدون عبد الرحمان، **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب في ذكر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988، ج7.
- بيرجي فرانسوا، **موحا اوحمو الزياني (1877 1921)**، ترجمة محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط1، 1999.
- الرائد كورني، **رائحة البارود في طريق احتلال الجنوب المغربي مع طابور مانجان مشاهد من مقاومة الرحامنة وتادلا وزيان والقصيبة**، ترجمة محمد ناجي بنعمر، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع 23، ماي2017.
- كنون سعيد، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب الدكتور محمد بوكبوط، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، 1929، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع 18، يوليوز 2014.

2. المراجع:

- بوسلام محمد، **اللباس التقليدي في المغرب (الجذور والإنتاج والأصناف والتطور)**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2014.
- الجمعية المغربية للتأليف والنشر ف بإشراف محمد حجي، **معلمة المغرب**، مطابع سلا،1984. 2004، ج 16.
- الخمليشي عبد العزيز، **مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1912-1818) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية**، منشورات ك. آ. ع. إ بالرباط، رسائل وأطروحات66، 2012،
- زيادي أحمد، **الأحاجي الشعبية مجالاتها وبنياتها ووظائفها ومقارناتها وخصائصها**، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2007.
- الشرقاوي محمد، **ورقات من تاريخ الزاوية الشرقاوية ومدينتها أبي الجعد خلال الفترة ما بين 1894.** 1956، مطبعة صناعة الكتاب، ط1، 2009.

- كتاب جماعي، **في ذاكرة الموسيقى الأمازيغية حوارات**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري سلسلة دراسات وأبحاث رقم 84، منشورات مطبعة عكاظ، الرباط 2021،
- نشاط مصطفى، **جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ/ 1212م إلى 759هـ / 1358م مساهمة في دراسة العلاقات المغربية الإيطالية في أواخر العصر الوسيط**، مطابع الرباط نت، الرباط، 2014،
- نعيمي مصطفى، **منطقة أزرو على عهد الحماية 1911. 1956 التدخل، البنيات، والمقاومة**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2013.
- UNIDO.Creative Industries and Micro & Small Scale Enterprise Développent A Contribution to Poverty Alleviation , Vienna, 2005

3. . الدراسات الجامعية

- الصالحي علي بن خميس، **دور المؤسسات المحلية في تنمية الصناعة التقليدية نموذج مجمع الصناعة التقليدية بمراكش**، أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، 2023.
- عبيدي سعيد، **قصور المعاضيد دراسة تاريخية وعمرانية**، بحث لنيل شهادة الماستر، ك.آ.ع.إ، سايس، فاس، 2011. 2012.
- قلاق حسن، **الترابية بالأطلس المتوسط الشمالي الشرقي . من أجل قطب لاقتصاد التراث**، بحث مرقون لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، ك.آ.ع.إ، سايس، فاس. 2013. 2014.

4. المقالات والندوات:

- أعمار عبد العزيز، **وشم المرأة في شعر الملحون: دلالة الرمز في خطاب الجسد وخيال الذاكرة**، مجلة المناهل، إصدارات وزارة الشؤون الثقافية، ع 45، س 19، يوليوز 1994، ص ص 144. 152
- البحري زهير، التبتي محمد، "**الصناعة التقليدية مرتكزًا أساسيًّا للتنمية المحلية بجماعة إغزران**"، ندوة التنمية القروية بالمناطق الجبلية الحاجيات والمنتظرات، مطابع imagerie pub neon، فاس، 2012، ص ص307. 329

- البكراوي محمد، "**وضعية حرفة الدباغة بمدينة مكناس على عهد الحماية 1934. 1954**"، ندوة التشكيلة الاجتماعية في تاريخ المغرب، ك.آ.ع.إ، الرباط، 1995، مجلة أمل، ع 18، 1999، ص ص 127.135.
- جامعة غرف الصناعة التقليدية، **مجلة جامعة غرف الصناعة التقليدية**، إصدارات جامعة غرف الصناعة التقليدية بالمغرب، ع11، مطبعة كادرا، الرباط، 2010،
- رايص نور الدين، "**تشجيع الحرفيات إسهام في التنمية وحفاظ على الموروث الثقافي**"، ندوة المواسم والمهرجانات فضاء لتثمين الموروث الثقافي، منشورات الملتقى الثقافي لمدينة صفرو، الشركة العامة للطبع والتوزيع، فاس، ط1، ماي 2013، ص ص315. 326
- زنيبر محمد، "**الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي**"، ندوة أعمال ابن خلدون، الرباط، 1979. ك. آ. ع. إ، الرباط، 1979، ص ص 277. 323.
- السرغيني صباح، "**الثقافة والتراث في خدمة السياحة والتنمية بمدينة فاس**"، ندوة الثقافة ورهانات التنمية، منشورات الدورة 21 للملتقى الثقافي لمدينة صفرو، الشركة العامة للتجهيز والنشر، ط1، 2011، ص ص 85. 100.
- العلوي عبد العزيز، "**صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الإنتاج والمبادلات)**"، مجلة كلية الآداب، فاس، ع خاص2، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء،1985، ص ص 49. 65.
- Guyot.P , Le Tourneau R» ,**Les Cordonniers De Fès** «In Hespéris, 1936, Fasc1, 1 ,Pp9-54.
- Pilant Lieutenant » ,**Notes Contributives À L'étude De La Confédéra -tion Zayan** ,«Les Archives Berbères, Publication Du Comité d'Études Berbères De Rabat, 1919 ,Pp 88- 124

5. . الجرائد المقابلات الشفوية:

. المفوضية الفرنسية بالرباط، **جريدة السعادة**، س 11، ع 735، 9 ماي 1914

. المملكة المغربية، الجريدة الرسمية، ع3211، 15ماي1974،

. مقابلة مع المعلم **عبد المجيد الدباغ**، أمين دار الدباغ بالمدبغة التقليدية بخنيفرة 2017/05/25.